

جوانب من الحياة الاجتماعية في مملكة مالي من خلال رحلة ابن بطوطة

Aspects of social life in the kingdom of Mali through Ibn Batuta's journey

أ.د. شعيباني نور الدين *

جامعة الجليلي بونعامة، خميس مليانة - الجزائر.

moheiddine.saffeidine@univ-mascara.dz

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2026/06/10	2026/05/31	2026/05/17

الملخص:

تعد رحلة ابن بطوطة من أهم الرحلات شهرة، في التاريخ الإسلامي في العصر الوسيط، كما تعد مصدرا مهما تاريخ بلاد السودان، ومظاهرها الحضارية. حيث تميزت بتفاصيل دقيقة نقلت لنا الوضع الاجتماعي لمنطقة شهدت ندرة الكتابات التاريخية، وسنحاول من خلال هذه الدراسة تسليط الضوء على بعض الجوانب الاجتماعية من حياة سكان مملكة مالي الإسلامية من خلال هذه الرحلة،

وقد تم الاعتماد في هذه الدراسة على المنهج التاريخي من تحليل المادة المصدرية و استنباط الحقائق التاريخية، و تركيبها في قالب تاريخي بغرض تغطية الفراغات التاريخية الموجودة. وقد تم رصد جوانب مهمة من الحياة الاجتماعية في مملكة، منها القبيحة كظاهرة الاختلاط بين الرجال والنساء في المجتمع، ظاهرة العري عند نسائهم، ومنها الحسنة كمكانة المرأة ودورها في الحياة السياسية، بالإضافة إلى ظاهرة تدين مجتمع ما واحترمه جنب وبعض عاداته الغريبة.

* المؤلف المرسل

Abstract:

Ibn Battuta's journey is one of the most famous journeys in medieval Islamic history, and it is also an important source of information about the history of Sudan and its cultural manifestations. This journey is important in history of sub-Saharan Africa, and is social situation which there are few historical writings. Through this study, we will attempt to shed light on some of the social aspects of the lives of the inhabitants of the Islamic Kingdom of Mali through this journey.

This study relies on the historical method of analysing source material and deducing historical facts, and synthesising them into a historical framework with the aim of filling in the existing historical gaps. Important aspects of social life in the kingdom have been observed, including negative aspects.

Keywords: ibn Battuta, journey, Mali kingdom, woman, society, celebration.

مقدمة:

ساهمت الرحلة في العصر الاسلامي الوسيط بقسط كبير في التأريخ لأحداث تلك الفترة، وتعد رحلة ابن بطوطة نموذجا مشهورا لأكثر الرحلات شهرة في التاريخ الاسلامي في العصر الوسيط، حيث عكست تفوق المغاربة في ميدان الرحلة والاستكشاف من جهة، كم اعتبرت مصدرا مهم لا يمكن الاستغناء عنه في سرد أوضاع البلدان، والمظاهر الحضارية للشعوب المختلفة. وقد تميزت رحلته بالتفاصيل الدقيقة التي وصفت بها الوضع الاجتماعي في الدول التي زارها ابن بطوطة، وخاصة تلك الدول التي تشهد ندرة الكتابات المصدرة عنها مثل بلاد السودان عموما وبلاد مالي خاصة. لهذا كانت اشكالتنا في هذه الدراسة البحث عن الجوانب الاجتماعية لسكان مملكة مالي الاسلامية من خلال رحلة ابن بطوطة، واكتشاف بعض الجوانب الخفية و الغريبة في سلوكات هذا المجتمع.

وقد تم الاعتماد في هذه الدراسة على المنهج التاريخي القائم على تحليل المادة المصدرة (وهي رحلة ابن بطوطة) واستنباط الحقائق التاريخية، وتركيبها في قالب تاريخي بغرض

تغطية الفراغات التاريخية الموجودة. ونفترض في هذا البحث رصد جوانب مهمة من الحياة الاجتماعية في مملكة، منها القبيحة الحسنة، واكتشاف مكانة المرأة مدى تدين المجتمع من خلال سلوكياته اليومية.

1- ظروف و أهداف رحلة ابن بطوطة الى مالي:

قسم الدارسون ومؤرخون رحلة ابن بطوطة الى ثلاث مراحل، كانت المرحلة الاولى الرحلة التي اعتاد عليها المغاربة نحو الحج، والتي امتدت الى الهند و الصين، أما الثانية فكانت رحلته إلى الأندلس، بينما الثالثة والأخيرة فهي الرحلة الأكثر شهرة وأطولها مدة، وهي الرحلة التي إلى هي موضوع هذه الدراسة وهي نحو الصحراء وجنوبها و خاصة مملكة مالي¹.

ولقد جاءت هذه الرحلة بعد عودته إلى وطنه مراکش بعد رحلة طويلة وشاقة إلى مشارق الأرض، أكسبته حكمة ونظرة مغايرة للأمور، وخاصة نظرتة للرؤساء والملوك والسلاطين. حيث دخل في طاعة السلطان المريني أبي عنان المتوكل، وتقرب منه، ودخل في حاشيته، بعدما استطرفه السلطان وأحب حديثه، فقام برحلته من فاس إلى الاندلس و بعدها كانت رحلته إلى بلاد السودان و مملكتها الشهيرة مالي².

وبعد عودته من الاندلس دخل مراکش إلى حضرة السلطان ابي عنان فارس المتوكل، الذي ركب معه إلى سلا، ثم مكناسة، ثم فاس، وهنا ودعه السلطان حيث بدأت رحلته إلى بلاد السودان و ملكته مالي³.

ويبدو أن مرافقة السلطان المريني شخصيا للرحالة ابن بطوطة، وحرصه على توديعه لم يكن مجرد إجراء بروتوكولي ، لكون ابن بطوطة لم يكن وزيرا ولا امير دولة صديقة، ولا شخصية مهمة تستوجب مرافقة السلطان له، و ركوبه البحر معه، إلى غاية آخر محطة يخرج فيها من تراب مملكة مراکش، حيث يُعتقد ان ابن بطوطة المعروف برحلاته وخبرته في الجغرافيا والمدن

وطباع الناس وأحوالهم، وخبرته في مجالسة السلاطين والملوك، كانت فرصة للسلطان المريني ليكلف هذا الرحالة الصديق بمهمة سرية (تجسس) الغرض منها معرفة بعض التفاصيل حول المملكة التي تجاوره من الجنوب وتحدّه.

ومما يجعل اعتقادنا مقبولا هو تلك التفاصيل التي نقلها ابن بطوطة عن مملكة مالي والتي تجاوزت كل التفاصيل التي سجلها عن الممالك الأخرى في المشرق والمغرب والتي كانت أكثر أهمية من مملكة مالي. بالإضافة إلى ذلك نجد أن ابن بطوطة قد قطع رحلته لبلاد السودان بأمر من السلطان المريني، الذي أرسل له رسولا يطلب منه العودة إلى فاس للقاءه هناك بحكم شوقه لمعرفة التفاصيل التي جناها من رحلته إلى مالي، فلقد كان السلطان المريني متحمسا لمعرفة حقيقة التبر الموجود بهذه البلاد⁴. لهذا سوف نجد الكثير من المعلومات عن الأوضاع الاجتماعية لمملكة مالي التي تعتبر موضوع دراستنا هذه.

2- وضع المرأة في المجتمع المالي:

رغم أن المجتمع المالي كان مجتمعا مسلما خلال زيارة ابن بطوطة له⁵، وكان يعيش تحت حكم ملك تقي متمسك بشعائر الإسلام وهو منسا موسى شقيق الملك المشهور منسا موسى⁶، إلا أن ابن بطوطة كشف لنا عن ممارسات و عادات بعيدة الدين الإسلامي، وممارسات تنكرها الشريعة الإسلامية.

1.2- ظاهرة تعري النساء:

من المظاهر التي استقبحها ابن بطوطة في المجتمع المالي هو تعري الناس وخاصة الخدم و الجوّاري، اللائي يظهرون للناس عرايا، باديات العورات، وكان يراهم على تلك الصورة حتى في أيام رمضان، حيث رأى في ليلة السابع والعشرين من رمضان نحو مائة جارية خرجن من القصر بالطعام وهن عاريات. ولم يكن أمر التعري ينحصر على الجوّاري والخدم فقط بل تعداه إلى بنات السلطان نفسه اللائي كن يدخلن عليه كاشفات نهودهن دون ستر⁷.

2.2- ظاهرة اختلاط النساء ومصاحبتهم الرجال الغرباء:

إن ظاهرة الاختلاط بين الرجال والنساء في المجتمعات الإفريقية الوثنية أمر معروف ومؤلف، لكن بعد انتشار الإسلام، وتبنيه من طرف الشعوب الإفريقية غير الكثير من الممارسات اليومية، حيث حثّ الإسلام على ضرورة عدم اختلاط الرجال بالنساء، وهذا اعتماد على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تنهي على ذلك.

لكننا وجدنا في رحلة ابن بطوطة إلى مملكة مالي استمرار وجود ظاهرة الاختلاط بين الرجال و النساء، حيث لما دخل ابن بطوطة مدينة ولاتة (إوالاتن) بمملكة مالي وجد النساء فيها لا يَحْتَشِمْنَ من الرجال ولا يَحْتَجِبْنَ رغم مواظبتهم على الصلوات، وأن النساء عندهم لديهن أصدقاء وأصحاب من الرجال الأجانب، وكذلك للرجال صواحب من نساء أجنبيات⁸.

ولم تكن ظاهرة الاختلاط منتشرة عند العامة الجاهلون بأمور الشرع فقط، بل انتشرت حتى لدى طبقة الفقهاء و القضاة، حيث يروي ابن بطوطة في رحلته أنه دخل يوما على قاضي ولاتة⁹، وبعد استئذانه في الدخول وجد عنده امرأة صغيرة السن بدیعة الجمال، فلما أراد ابن بطوطة الخروج ضحكت منه بدون خجل وقال له القاضي: «لَمْ تَرْجِعْ؟ إِنَّمَا صَاحِبَتِي»¹⁰.

كما جاء أيضا في رحلة ابن بطوطة حكاية أخرى تصب في نفس الظاهرة، حيث يحكي أنه دخل يوما على الفقيه علي أبي محمد يندكان المسُوفي في داره، فوجده قاعدا على بساط، وفي وسط داره سرير مظلل، عليه امرأة معها رجل قاعد وهما يتحدثان، فسأل ابن بطوطة الفقيه عن تلك المرأة فأخبره بأنها زوجته، وأن من معها هو صاحبها، ولما سأله إن كان يرضى بذلك وهو يعرف أمور الشرع، فأحابه الفقيه بان مصاحبة الرجال للنساء عندهم

هي على خير ولا يوجد فيها شيء، ولا تهمة فيها، وأن نساؤهم لسن كنساء بلاد المغرب. فتعجب من رعونته وانصرف عنه ولم يعد إليه بعد ذلك¹¹.

ولقد اعتبر ابن بطوطة أن عدم غيرة الرجال على زوجاتهم في المجتمع المالي إنما هو نوع من التطور الاجتماعي، فهو يعتبر ذلك حرية للمرأة مادامت تحمل لمعظم المسؤوليات¹². ولكننا نقول أن المجتمع المالي كانت تسيطر عليه سلطة المرأة، أي ما يعرف بالمجتمع الأبوسي، حيث أن مقاليد القوامة معظمها لدى المرأة وليس الرجل، وربما هذا ما كان يقصده ابن بطوطة لما ذكر في رحلته عن نساء مدينة ولانة، لما قال: « ونساؤها فائقات الجمال وهن أعظم شأنًا من الرجال »¹³.

3.2- علاقة المرأة بالحكم و السياسة:

رغم أن المجتمع المالي كان مجتمعاً مسلماً إلا أن بعض شعوبه بقوا يورثون المرأة في الحكم كما كان يحدث في عهد الممالك الوثنية، فلقد كان حكام غانة الوثنيين يورثون البنت أو ابن البنت، لأنهم لا يشكون فيه أنه ابن أختهم بينما يشكون في ابنهم ولا يقطع في صحة اتصاله به¹⁴. وقد وجدنا هذه الظاهرة ما تزال موجودة في مالي خلال رحلة ابن بطوطة الذي ذكر في رحلته، حيث أنه لما تحدث عن قبيلة مسوفة الساكنين بولاته التابعة آنذاك لمملكة مالي الإسلامية، وصف أمرهم بالغريب وأنهم ينسبون الابن إلى خاله ولا ينسب إلى أبيه، وأنه لا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه، رغم أنهم كانوا مسلمين ويحفظون على الصلوات ويتعلمون الفقه ويحفظون القرآن¹⁵.

كما تحدثت رحلة ابن بطوطة عن ظاهرة مشاركة زوجات الملوك لزوجاتهم في الحكم، وهي ظاهرة يبدو أنها كانت منتشرة وشائعة في الممالك الإفريقية القديمة، فملوك مالي كانوا يشركون زوجاتهم في أمور الدولة والحكم أيضاً، وهذا حسب شهادة ابن بطوطة الذي زار مالي وأقام فيها فترة من الوقت في عهد الملك منسا سليمان شقيق منسا موسى وخليفته

على عرش مالي، حيث يقول في هذا الشأن: «... واتفق في أيام إقامتي بمالي أن السلطان غضب على زوجته الكبرى بنت عمه المدعوة بقاسا، ومعنى قاسا عندهم الملكة، وهي شريكته في الملك على عادة السودان، ويذكر اسمها مع اسمه على المنبر»¹⁶.

ولما رجعنا إلى كتب الفتاش لمحمود كعت وجدناه يؤكد ما ذهب إليه ابن بطوطة، حيث يشير إلى أن زوجة منسا موسى التي سافرت معه في رحلته إلى الحج وتسمى "أناري كنتي" كانت تحظى هي الأخرى بنفس مكانة السلطان عند عبيده وعند عامة الشعب، حيث أن كبير عبيده الذي كان يسمى "جنكي" كان لا يقوم على خدمة أحد من حاشية الملك ماعدا زوجته هذه، كما أنها كانت تحتكر عائدات إقليم مدينة جني من غرامات و إتاوات بما لهذا الإقليم من مكانة تجارية و اقتصادية هامة وعائدات ضخمة¹⁷.

وإذا تمعنا جيدا في نصوص ابن بطوطة لوجدنا أن القصر الملكي في مالي أثناء حكم عائلة كيتا كان يعيش تنافسا محموما بين نساء الملك على السلطة يمكن أن نشبهه بذلك الصراع الذي عرفته قصور السلاطين العثمانية بين حريم السلطان من أجل الانفراد بمنصب الزوجة الأولى للسلطان، وما كان يترتب عن ذلك الصراع من دسائس ومؤامرات تصل في كثير من الأحيان إلى انقلابات و اغتالات يتورط فيها سلطانات القصر بتواطؤ بعض قادة الجيش.

ففي هذا الصدد نقل لنا ابن بطوطة في رحلته أن الملك منسا سليمان غضب في إحدى المرات من زوجته الكبرى و شريكته في الملك و ابنة عمه في نفس الوقت وهي الملكة قاسا، وقام بسجنها عند بعض ضباط جيشه المعروفون بالفرارية، وولّى مكانها زوجته الأخرى المدعوة "بنجو"، ورغم أن هذه الأخيرة لم تكن من بنات الملوك وهو ما جعل الناس تُكثر الكلام في هذا الأمر وأنكروا عليه تفضيل واحدة من العامة على ملكة من السلالة الحاكمة، وخاصة لما أذلل بنات عمّه وطلب منهن أن يهنئن الملكة الجديدة "بنجو" فقمّن بذر الرماد على

أذرعهن كعلامة لإجلال الملكة الجديدة و تعظيمها لكنهن رفضن أن ينثرن التراب على رؤوسهن والتي كانت أيضا من طقوس تعظيم الملوك و إجلالهم في مملكة مالي¹⁸.

لكن يبدو أن الملكة الأولى "قاسا" لم تستسلم للأمر الواقع، حيث أُنْهَـا بمجرّد خروجها من السجن، جاء بنات عمّها لتهنئتها على إطلاق سراحها وقمن بنثر التراب على رؤوسهن تعبيرا مِنْهُنَّ على تجديد الولاء والتعظيم لها دون غيرها، مما أثار حفيظة الزوجة الثانية التي قدمت شكوى إلى السلطان منسا سليمان وهو ما جعل بنات عم السلطان تخشين انتقام السلطان فلجأتن إلى الاستنجار بالجامع قبل أن يعفو عنهن. لكن الملكة الأولى "قاسا" لم تتوقف عند هذا الحد بل أُنْهَـا بَقِيَّت تمارس سلطتها و تتصرف كملكة، بل أُنْهَـا أصبحت كل يوم تركب عبيدها كما تركب البعير والحمير و تنثر التراب على رؤوسهم، وتقف عند المشور(وهو المجلس الملكي) وهي منقّبة، إلى أن فضحتها جاريتهـا بعد استنطاقها من طرف قائد الجيش، فأخبرت الملك بأنّ الملكة قاسا تأمرت مع ابن عم السلطان المدعو "جاطل" والهارب إلى منطقة "كنبرني" من أجل أن ينقلب على السلطان و يطيح به، فخشيت الملكة قاسا بعدما تمّ تهديدها بالقتل، ولجأت إلى دار الخطيب¹⁹ تستجير به²⁰.

4- ظاهرة التدين في مجتمع مالي:

يظهر من خلال ما جاء في رحلة ابن بطوطة، أن مجتمع المالي رغم ما اتسم به من ممارسات خارجة عن الدين، وبعضها تعود إلى الوثنية التي كانت سائدة قبل انتشار الاسلام، إلا أنه كان مجتمعا متدينا شديد التمسك بشرائعه التعبدية. حيث يذكر ابن بطوطة انه من الصفات الحسنة التي اتسم بها هذا المجتمع هي مواظبتهم على الصلوات، والتزامهم بأدائها في جماعات، وضرهم لأولادهم عليها، إلى درجة انه إذا كان يوم الجمعة ولم ييكر أحدهم إلى المسجد لم يجد أين يصلي من شدة الزحام. وهذا ما كان يدفعهم لان يبعث الانسان غلامه بالسجاد فيبسطها له في مكان بالمسجد حتى يذهب الى المسجد. كما كانوا يتهيؤون لصلاة

الجمعة بشكل حي يلبسون الثياب البيض الحسان²¹، ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص واحد غسله و نظفه وشهد به الجمعة مطبقين سنة الرسول صلى الله، وما جاء في سورة الأعراف مصداقا لقوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾²².

ومن مظاهر تدينهم التي ذكرها ابن بطوطة عنايتهم بحفظ القرآن، فقد كانوا يجعلون لأولادهم قيودا إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه²³. وقد روى ابن بطوطة في رحلته بهذا الشأن أنه دخل يوما على قاض يوم العيد وأولاده مقيدون فقال له: « ألا تسرحهم؟ فقال له: «لا أفعل حتى يحفظوا القرآن». كما مر ابن بطوطة في يوم على شاب آخر عليه لباس فاخرة، وفي رجليه قيد ثقيل، فسأل من كان معه عن الجريمة التي ارتكبها هذا الشاب، ف قيل له أنه قُيد حتى يحفظ القرآن²⁴.

5- الاحتفال بالمناسبات الدينية:

نقل لنا ابن بطوطة طريقة الاحتفال بعيدي الاضحى والفطر، حيث كان إذا جل يوم أحد العيدين يكر الناس في الخروج إلى المسجد الذي يقع بالقرب من مسجد السلطان، وكان الناس يلبسون في يوم العيد ثيابا جديدة بيضاء، اما السلطان فكان يرافقه بركبه، وكان الناس المرافقين له يلبسون الطاليسان²⁵، وهم مهللين ومكبرين، ولما يفرغ الامام من خطبته بعد الصلاة يجلس بين يدي السلطان ويتكلم بكلام كثير ويدعو الناس الى الالتزام بأوامره، وبعد العصر تقام الاحتفالات مع السلطان على شكل مهرجان للألعاب²⁶.

أما إحياء شهر رمضان فقد كان يتم حسب ابن بطوطة بتلاوة القرآن، وبحضور الفقهاء و القضاء إلى مجلس السلطان المعروف بالمشور، ويطلبون فيها حاجتهم، اما في ليلة السابع والعشرين من رمضان فقد كانت تحظى بتقديس وتعظيم كبيرين، حيث كان السلطان يوزع فيها علي القاضي والإمام الخطيب والفقهاء الذهب، وكانوا يسمونها الزكاة²⁷. وقد أكد

محمود كعت هذا الأمر، بقوله أن أهل تنبكتو بمالي كانوا يحيون شهر رمضان بتوزيع الهدايا والصدقات على الناس وخاصة العلماء والفقهاء. إذ يقول: « وإذا كانت ليلة القدر يأمر (الحاكم) بطبخ الطعام ثم يجعل المطبوخ في المائدة، ويحملها فوق رأسه وينادي قراء القرآن وصبيان المكتب (الكتاب)، يأكلونها والقدح على رأسه يحملها وهو قاعد وهم قائمون يأكلون تعظيما لهم وهم على ذلك هلم جر»²⁸.

6- إحسان المجتمع المالي للبيضان المقيمين ببلادهم:

ومن الصفات التي استحسناها ابن بطوطة في مجتمع مملكة مالي هو عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان، ولو كان القناطير المقنطرة، إنما يتركونه بين ثقة من البيضان، حتى يأخذه مستحقه²⁹، ومن الأمثلة التي أوردها ابن بطوطة بخصوص هذه الظاهرة هو أنه لما حضر صلاة الجمعة فإذا بأحد التجار من طلبة مسوفة (وهم بربر من البيضان)³⁰ يسمى بأبي حفص، فقال: "يا أهل المسجد، أشهدكم أن منسا سليمان في دعوتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قال ذلك، خرج إليه جماعة رجال من مقصورة السلطان فقالوا له: من ظلمك؟ من أخذ لك شيء؟ فقال: مشانجو إيواتن³¹، يعني مشرفه خذ مني ما قيمته ستمائة مثقال، وأراد أن يعطيني في مقابلة مائة مثقال خاصة فبعث السلطان إليه عنه للحين، فحضر بعد أيام، وصرفها للقاضي، فثبت للتاجر حقه فأخذه، وبعد ذلك عزل المشرف عن عمله³².

ومن مظاهر تقديرهم للبيضان في بلادهم هو توليتهم في خطة القضاء والافتاء، حيث يذكر ابن بطوطة ان هذه الخطة كان يسيطر عليها البربر والعرب المغاربة، منهم محمد بن عبد الله بن ينومر قاضي ولاتة، والقاضي عبد الرحمن قاضي العاصمة نياي، بالإضافة إلى القاضي الذي كان يرافق منسا موسى، وهو من البيضان والمكنى بأبي العباس، ويعرف بالدكالي نسبة إلى مدينة دكالة بالمغرب الأقصى، والقاضي أبي إبراهيم قاضي مدينة تكدا³³. وكان سبب

تولية القضاة من البيضان نظرا لتمكنهم من الشريعة وتبحرهم في أحكام الفقه، باعتبار أن القضاء كان يعتمد في نصوصه على الشريعة الإسلامية³⁴.

لكن استنادا إلى رحلة ابن بطوطة دائما نلاحظ أن هذا الوضع لا ينطبق على كل البلاد المالية، ذلك أن هناك منطقة في أقصى جنوب مملكة مالي، وهي أرض الليميين حسب تعبير ابن بطوطة، كان البيضان لا يدخلونها، ومن دخلها من البيضان قتلوه³⁵.

وفي اعتقادنا أن الليميين هم انفسهم قبائل الللم الذين تحدثت عنهم المصادر العربية، ربما يكونوا هم أنفسهم أولئك الذين ذكرتهم المصادر العربية وهم سكان الجنوب المعروفين باللملم أو (الدمدم) أو (الدامدم)، والذين وصفتهم بأنهم كفار مهملون يأكلون لحوم البشر، ولا يكادون يفقهون قولاً، وأنهم أشبه بالحيوان³⁶.

7- الأطعمة و الأشربة في مالي:

اختلفت الأطعمة و الاشربة في مملكة مالي ، وذلك حسب المدينة و موقعها وأصل سكانها وثقافتهم، ودرجة اختلاطهم بالأجانب وكذا لطبيعة المواد التي يزرعونها، فهي كلها عوامل تحكمت في نوع المأكول والمشرب. ففي ولاتة مثلاً وهي أول عمالة السودان حسب تعبير ابن بطوطة³⁷، أي أول مدينة تدخل في سلطة مملكة مالي بالنسبة للقادمين من الشمال، فإن غذاءهم الأساسي والمفضل الذي عزمهم عليه المشانجو وهو المشرف على المدينة كان يتضمن نوع من الجريش³⁸، يسمى عندهم جريش أنلي مخلوطا بالعسل ولبن³⁹. كما كانت تنبت في غابة ولاتة ثمار تشبه الفصوص، إذا طاب انفلق وخرج منه يشبه الدقيق كانوا يطبخونه في الأكل، كما كانوا يستخرجون الطحين من ثمرة تشبه الفول و يصنعون من دقيقها الاسفنج، بينما كانوا يستعملون زيت يستخرج من عظمة ثمرة الغري، وهي فاكهة تشبه الاجاص، فبهذا الزيت يطبخون و يقلون به الاسفنج، ويدهنون به⁴⁰.

ومن الأطعمة التي تحدث عنها ابن بطوطة والتي ودها بمالي هو الكسكسو⁴¹، ولسنالا ندري هل هو نفسه الذي يسمى في بلاد المغرب بالكسكسي، والذي إن كان هو نفسه لكان على ما يبدو قد انتقل اليهم عن طريق التجار المغاربة و الجالية المغاربية المنتشرة بكثرة في مالي وقتذاك. كما انتشرت عندهم انواع اخرى من الدقيق مثل دقيق النبق⁴²، والارز، وطبق يسمى الفوني، كما وجدت عندهم العصيدة وكانت تصنع من شيء يشبه القلقاس(البطاطا القصبية Le taro) ولكن عندهم يسمى القافي، وهي الأكلة المفضلة لدى سكان العاصمة نيامي، كما كانوا يطبخون أيضا دقيق اللوبياء (الفاصوليا)⁴³.

أما الاشربة التي ذكرها ابن بطوطة فهي اللبن واللبن الرائب، وهناك مشروب يسمى الدغنو⁴⁴ (أو الديغي)، وهو ماء فيه حريش الذرة مخلوط بالعسل مع لبن، وكانوا يشربونه عوض الماء، و إن لم يجدوا ذرة اخلطوا الماء بالعسل أو اللبن وشربوه⁴⁵.

8- بعض العادات الغريبة لدى المجتمع في مالي:

لاحظ الرحالة المغربي خلال زيارته إلى مالي بعض العادات الغريبة في المجتمع المالي، بعضها يتعلق بمعتقدات دينية أو معتقدات شعبية بالية، وبعضها متعلق بممارسات يومية. منها أن أهل مسوفة الولايتين إذا خطب غريب ابنتهم زوجها له لكنهم يمنعونها من السفر مع زوجها، ومنها إذا دخل أحدهم على مجلس السلطان نثر التراب فوق رأسه وظهره، بعدما ينزع عمامته ويرفع سرواله الى نصف ساقه، وضرب الأرض بيديه، وذلك تذلا للملكهم⁴⁶.

ومن عاداتهم الغريبة أنهم اذا اختصموا فيما بينهم احتكموا الى الجراد، التي يعتقدون انها تتكلم ولا تقول الا الحق ويصدقها القاضي. ومن العادات القبيحة والغريبة عن الاسلام الذي يعد دين المملكة ومملكها، أن بنات عم السلطان غذا دخلن عليه تجردن من ثيابهن، ويدخلن عليه وهن عرايا، كما أن أكثر الماليين يأكلون الجيفة والكلاب والحمير رغم اسلامهم⁴⁷.

وكان الملك كلما استضاف اهل الغابات من الهمج آكلي لحوم البشر، أن يذبح لهم الجوّاري كطعام لهم، وكانوا يلطخون وجوههم بدمائهم ويشكرون الملك على حسن الضيافة.

خاتمة:

قد كشفت رحلة ابن بطوطة عدة حقائق وتناقضات عن المجتمع المالي خلال فترة حكم منسا موسى. فرغم طابع التدين الذي يبدو عليه ظاهريا من حرص على الصلاة وازدحام في المساجد وحرص على تحفيّض القرآن لأبنائهم، واحتفالهم بالمناسبات الدينية الاسلامية، إلا أن هناك مظاهر مناقضة لتعاليم الاسلام بقيت منتشرة كظاهرة الاختلاط والعري عند النساء، وديانة الرجال وعدم غيرتهم على نسائهم. بالإضافة الى انتشار عادات أخرى غريبة تمت بصلة لبقايا المعتقدات الوثنية التي كانت سائدة قبل الاسلام.

وهذا يقودنا إلى الاستنتاج أن المجتمع المالي و السوداني عموما خلال فترة الرحلة كان يسيطر ظاهرة الاسلام(الظاهري) التي سماها بعض المستشرقين أمثال الفرنسي فانسون مونتوي(Vincent Monteuil) بظاهرة الاسلام الأسود، ولكن في الحقيقة هي ظاهرة تتعلق بعمق تأثير بقايا التقاليد الوثنية قديمة.

الهوامش:

¹ - خيرة سياب، الصحراء في رحلة ابن بطوطة اللواتي الطنجي، مجلة الحضارة الاسلامية، مجلد4، عدد19، 2013، ص ص 539-564.

² - نفسه، ص222.

³ - نفسه، ص222.

⁴ - حسين مؤنس، مرجع سابق، ص236.

⁵ - وصل ابن بطوطة إلى عاصمة مالي في ربيع عام 753هـ/ 1352 م.

- ⁶ - نور الدين شعباني، عائلة كيتا و دورها في مملكة مالي الاسلامية، بين القرنين (5-10م/11-16م)، دار القدس الذهبية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2019، ص 131.
- ⁷ - ابن بطوطة، تحفة النظر في غرائب الامصار وعجائب الاسفار (المعروف بالرحلة)، تح: محمد عبد المنعم عريان، مراجعة: مصطفى القصاص، دار احياء العلوم، بيروت، لبنان، طبعة اولى، 1987م، الجزء الاول، ص704.
- ⁸ - نفسه، ص690.
- ⁹ - كان ابن بطوطة يعتبر نفسه قاضيا لهذا فكان لا ينزل إلا على القضاة، فإذا نزل على بلد ولم يجد فيه زاوية أو رباطا سأل عن القاضي ونزل عليه. وأن لم يجد ينزل عند الفقيه. انظر : حسن مؤنس، ابن بطوطة ورحلاته، دراسة وتحليل، مرجع سابق، ص24.
- ¹⁰ - ابن بطوطة، مصدر سابق، ص691.
- ¹¹ - نفسه المكان.
- ¹² - حسين مؤنس، مرجع سابق، ص230.
- ¹³ - ابن بطوطة، نفس المصدر، ص690.
- ¹⁴ - البكري (أبي عبيد)، المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب و هو جز من كتاب المسالك و الممالك، مكتبة أمريكا و الشرق ميزونوف، باريس، 1965م. ص ص 174-175.
- ¹⁵ - نفسه، ص 690.
- ¹⁶ - ابن بطوطة، مصدر سابق، ص688.
- ¹⁷ - محمود كعت، تاريخ الفتاش، دراسة وتعليق: آدم مباء، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، لبنان، طبعة أولى، 2014م، ص 37.
- ¹⁸ - ابن بطوطة، مصدر سابق، ص ص 688 - 689؛ عبد الله عيسى، مكانة المرأة في مجتمع السودان الغربي ما بين القرنين 11 و 16م، سلسلة البحوث والدراسات، برنامج إفريقيا، قضايا التاريخ والحضارة، رقم 2 يوم 24 مارس-آذار 2021 موقع الكتروني: <https://gulffutures.org/archives/2737>

19 - كانت عادة أهل مالي أنهم يستجبروا بالمسجد أو دار الخطيب في حالة تعرضهم لتهديد أو مطاردة، دار الخطيب تحظى مثل المسجد بحزمة كبيرة لدى الماليين، انظر: عبد الله عيسى السلامة، الإسلام مرجعية لمملكة مالي خلال القرن الثامن هج/14م، مجلة البيان الإلكترونية، عدد مارس 2014، موقع الكتروني: <https://www.albayan.co.uk/MGZarticle2.aspx?ID=3567>

20 - ابن بطوطة، نفس المصدر، ص 689.

21 - نفسه، ص 703.

22 - الأعراف، آية 31.

23 - ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 704.

24 - نفس المكان

25 - الطاليسان: هي قطع خشبية صغيرة تستخدم لحمايتهم من العين والحسد.

26 - نفسه، ص 703.

27 - ابن بطوطة، مصدر سابق، ص 701.

28 - محمود كعت، مصدر سابق، ص 180.

29 - ابن بطوطة، مصدر سابق، ص 703.

30 - بخصوص قبيلة مسوفة و القبائل البيضان أنظر: الشيخ موسى كمارا، تاريخ قبائل البيضان عرب الصحراء الكبرى، تحقيق: الدكتور حماد الله ولد السالم، جامعة نواكشوط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2009م.

31 - المشانجو هو موظف حكومي مهمته الاشراف على تنظيم التجارة و القوافل و تحصيل الضرائب: انظر: نور الدين شعباني، دور عائلة كيتا في مملكة مالي الاسلامية، دار القدس الذهبية، الجزائر، طبعة أولى، 2019، ص 196.

32 - ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 701.

33 - نفسه، من الصفحة 692 إلى الصفحة 698.

34 - شعباني (نور الدين) دور عائلة كيتا، مرجع سابق، ص 177.

35 - ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 693.

- ³⁶ - الدمشقي(شمس الدين الأنصاري)،نخبة الدهر في عجائب البر والبحر. طبعة لبيبzig، 1923، ص240؛ انظر أيضا: ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، المؤسسة البطنية للكتاب، الجزائر، 1980، ص91.
- ³⁷ - مصدر سابق، ص 689.
- ³⁸ - الجريش هو قمح مجروش (أي مكسر)، و يسمى في بلدان المغرب العربي بالمرمز.
- ³⁹ - نفسه، ص690.
- ⁴⁰ - نفسه، ص692.
- ⁴¹ - ابن بطوطة، نفس المصدر، ص693.
- ⁴² - ربما يقصد ما يسمى عندنا بالنبق وهي ثمار نبات السدر.
- ⁴³ - ابن بطوطة، مصدر سابق، ص 693.
- ⁴⁴ - ويسمى أيضا الديغي أو(Le dégué): هو مشروب منعش خاص بطبقة الملوك والأمراء والمحاربين والنبلاء في مملكة مالي، يصنع من الأرز أو من القمح المفتت، يتناول عادة السلاطين في الصباح. انظر: نور الدين شعباني، دور عائلة كيتا، نفس المرجع، ص115.
- ⁴⁵ - ابن بطوطة، نفس المصدر، ص708.
- ⁴⁶ - نفسه، ص697.
- ⁴⁷ - نفسه، ص701.